تصدير

تريد الدراسات التي يضمها هذا الكتاب أن تشق طريقاً جديداً في حقل اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، موصولة بطائفة من الأدبيات الأصيلة في ذلك الحقل إفادة وتعميقاً وتطبيقاً على نصوص عربية أسهمت في صناعة الثقافة العربية والأدب العربي القديم والمعاصر، انطلاقاً مما رأيناه مفاهيم جوهرية لابد للبحث اللساني العربي المعاصر من أن يدلى فيها جاهداً بدلوه.

في الدراسة الأولى تناولت مفهوم الكفاية وتطوره من الكفاية اللغوية عند التحويليين إلى الكفاية الاتصالية عند اللسانيين الاجتماعيين والتداوليين.

وفى الدراسة الثانية استهدفت بالتحليل مفهوماً محورياً ومعياراً نصياً أولياً هو "الحبك" في قراءة متأنية لتبصرات البلاغيين العرب لذلك المعيار سواء أكان حبكاً نصياً أدبياً أم حبكاً نصياً قرآنياً . وقد خلصت هنا إلى جملة من الملحوظات والاستخلاصات التي تؤكد وعياً نظرياً قوياً بأهمية ذلك المعيار في صناعة النص وتحليله في آن معاً.

أما الدراسة الثالثة، فقد حاولت فيها الوقوف على أهم الوسائل اللغوية والمنطقية التي مالت النصوص الحجاجية العربية قديماً وحديثاً إلى توظيفها للإقناع بوجهة النظر.

وفى الدراسة الرابعة عالجت مفهوماً مركزياً في تداولية أفعال الكلام؛ وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية" الذي أتوقع له استثماراً موسعاً حثيثاً في ميدان اللسانيات العربية المعاصرة والنقد الأدبي العربي المعاصر؛ وذلك لوقوعه في مركز العملية الاتصالية في صورتها العامة والأدبية جميعاً.

أما الدراسة الخامسة والأخيرة في ذلك الكتاب ، فهي محاولة لاستجلاء العلاقة بين الصورة الأدبية والثقافة، وقد بدا لى هنا أن الثقافة العربية قد عنيت بالصورة الأدبية من حيث هي نص على حساب العناية بها من حيث هي خطاب، ومن ثم كانت العناية بتحليل عناصر الصورة وجمالياتها على حساب ربط الصورة بسياقاتها الاتصالية والثقافية، حيثما تصبح الصورة الجميلة في سياق اتصالي ثقافي غير جميلة في سياق اتصالي ثقافي آخر.

تجتمع الدراسات الخمس السابقة على غاية عامة واحدة هي دفع الفكر اللساني والنقدي العربي في ميدان تحليل الخطاب إلى مراحل متقدمة لا يحرم فيها نفسه من الإفادة من المفاهيم والمناهج الجديدة في الفهم والتحليل والتأويل . إن اتصال الفكر اللساني والنقدي العربي باللسانيات والنظريات النقدية المعاصرة في الغرب الأوربي والأمريكي لن تكون نتيجته إلا أسباب الحركة إلى الأفضل والأرقى والأرحب بإمكانياته المنهجية العلمية، وليس لأولئك المستمسكين بعروة التراث دون سواه أن يضيفوا إلى الفكر العربي جديداً، بل ليس لهم أن يحسنوا قراءة التراث ذاته واستصفاء جواهره المكنونة.

المؤلف

obeikandl.com

أوليات

تحليل الاستعمال اللغوي في هيئته النصية لا الجملية هو الهدف المشترك بين النص والخطاب والاتصال . استفرغت النظرية اللسانية المعاصرة جهدها على مدى عقود ثلاثة ماضية من أجل تحقيق ذلك الهدف حتى عدّ أهم إنجازاتها المنهجية . والحق أن الانتقال من نطاق الجملة إلى نطاق النص ينبغي له أن يكون انتقالاً من الثبات إلى الحركة، من كم المادة المحللة إلى توسيع في كيفية التحليل؛ كالنظر إلى العلاقات بين المنطوقات والتفاعلات بين المشاركين في الاتصال ومقاصدهم.

في التقليد الأوربي يغلب استخدام "النص"، على حين يغلب استخدام "الخطاب" في التقليد الأنجلو أمريكي. بيد أن التداخل بين النص والخطاب من حيث هما اصطلاحان محوريان وعلمان لسانيان، مما لم يحسم أمره في الأدبيات. تستطيع عبارات مثل "خطاب النص" و "نص الخطاب" و "النص بنية خطابية" و "الأدب خطاب نصي" و "الخطاب النصي" و "إدراك الخطاب بوصفه نصاً" (وهو الفكرة الأساسية في الهرمينوطيقا) وغيرها، تستطيع أن تؤكد التداخل والاشتباك بين هذين المصطلحين. وقد امتد مثل هذا التداخل أو الاشتباك إلى النص والاتصال؛ إذ بدا علم اللغة النصي عند بعض رواده مثل: ف. كالماير W.Kallmeyer علماً يتجاوز دراسة أبنية النصوص إلى دراسة صفات التوظيف الاتصالي للنصوص، أي تجاوز الحدود شبه المشتركة لعلم اللغة النصي إلى علم الاتصال تجاوزاً بلغ الدرجة التي بدا عندها علم اللغة النصي مساوياً لعلم الاتصال. لقد وسع كالماير مفهوم النص توسيعاً عظيماً. النص عنده عبارة عن العلاقات الاتصالية التي ترد في تفاعل

اتصالى [١].

والعلاقات الاتصالية - على إطلاقها - تتجاوز العلاقات اللغوية إلى العلاقات غير اللغوية التي تلعب فيها السلوكيات الحركية دوراً نشطاً بين المشاركين في ذلك التفاعل الاتصالي.

في مقابل ذلك يميل بعض اللسانيين النصيين المعتدلين إلى حصر مفهوم النص في إنتاج العلاقات الاتصالية اللغوية واستقبالها، وهو ما عبّر عنه صراحة كل من هاينمان W.Heinemann وفيفيجر D.Viehweger . وعلى رغم أن كلا منهما يرى أن كثيراً مما يسمى بعلم اللغة النصي لا يكفى - فيما يبدو - لوضع المعايير التي يجب أن يقوم عليها علم للنص، من حيث إن العنصر الأساسي - وهو "النص" وحده - قد أظهر أنه غير كاف لبناء فرع معرفي مستقل، فإنهما قد ذهبا إلى أنه لا يمكن أن يفهم علم اللغة النصي على أنه علم شامل، بل يجب على علم اللغة النصي أن يبقى بحثه محصوراً في أبنية النصوص وصياغاتها، مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية والنفسية العامة [٢].

إن تعريف النص بالخطاب شيء مألوف عند كثير من الدارسين. يقول روجر فاولر Roger Fowler : "إن كل نص خطاب، فعل لغة من لدن مؤلف ضمني، له تصميم محدد لقارئ ضمنى محدد الهوية" [٣]. وتقول جوليا كريستيفا Julia

(١) Kallmeyer, W.u.a.; Lektuerekolleg Zur Textlinguistilc, Bd. 1. Einfuehrung. Koenigstein (l980) S45.

(٢) راجع : فولفجانج هاينمان وديتر فيفيجر : مدخل إلى علم اللغة النصى، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي . جامعة الملك سعود. السعودية (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م). ص ص ٩-١٢.

(٣) فاولر، روجر: اللسانيات والرواية. ترجمة. لحسن إحمامة. دار الثقافة. الدار البيضاء. ط ١ (١٩٩٧م) ص٦٦.

Kristeva : "النص الأدبى خطاب يخترق حالياً وجه العلم والأيديولوجيا والسياسة"(١).

لقد اعترف ميخائيل استوبس Michael Stubbs بما يعترى النص والخطاب من غموض وخلط، ولكنه يرى – في الوقت نفسه – أن الاختلاف بينهما اختلاف ضئيل لا يجعله يأمل في تأسيس فارق نظرى مهم بينهما. ولكنه يعود – في محاولته التمييز بينهما – إلى تقديم بعض الملحوظات المفيدة :

١- فنحن نتكلم غالباً عن "النص المكتوب" في مقابل "الخطاب المنطوق".

٢- وغالباً مايعنى "الخطاب" الخطاب التفاعلي interactive discourse، على حين يكون النص مونولوجا غير تفاعلى، سواء في ذلك أن يكون مونولوجا منطوقاً جهرة أم غير ذلك (٢).

التمييزات السابقة نرى لها نظيراً في الثقافة العربية. بينما ارتبط النص بالمتن أو ناتج العملية الاتصالية، إذا بالخطاب يرتبط بالاتصال الشفاهى المباشر من ناحية، كما يرتبط بحضور الطرف الآخر في العملية الاتصالية وتفاعله على نحو ما وأداء وظائف أيديولوجية من ناحية أخرى.

الحوارية والتفاعل في الخطاب مما يلح على التنويه به غير واحد من المعاصرين. خذ مثلاً على ذلك ديان ماكدونيل Dian McDonell التي تجعل

(١) كريستيفا، جوليا: علم النص. ترجمة. فريد الزاهى. مراجعة عبدالجليل ناظم. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. ط٢ (١٩٩٧م) ص١٣.

(٢) Stubbs, Mechael: Discourse Analysis. Basil Blackurll. p.9.

الحوار الشرط الأول للخطاب [١].

الحيرة بين المصطلحين أو المراوحة بينهما في دراسات نظرية وتطبيقية لاتحصى تؤول إلى حصر بعض المنظرين النص في البناء المجرد في الوقت الذي يربط فيه آخرون ذلك البناء بمقاصده ووظائفه. يرى وليم جراب W.Grabe أن النص هو المعادل البنائى للغة في استعمال حقيقي [٢]. ويقوم هـ.ج.ودوسون H.G.Widdowson على دراسة الأدب بوصفه نصاً والأدب بوصفه خطاباً.

يعالج ودوسون في الحال الأولى موضوعات مثل: الإحالة، والعدول، ومحددات الاختيار، وقواعد المصاحبة، وغيرها من خصائص الأساليب والتراكيب [٣]. فإذا عالج الأدب بوصفه خطاباً صارت بؤرة اهتمامه هي أن قطعة من الاستعمال اللغوي – أدبية كانت أم غير أدبية – ليست تمثيلاً محضاً لمقولات لغوية؛ أي ليست نصاً فحسب، ولكنها أيضاً قطعة من الاتصال، قطعة من خطاب من نوع أو آخر . يقول ودوسون: "السؤال المهم في هذه الحال هو عن أهمية السمات أو الملامح النصية textual features التي تلزم لفهم الأدب بوصفه خطاباً. إن مركز هذه المسألة هو إشكالية العلاقة بين مراعاة القواعد وإمكانية التأويل" [٤].

من ناحية أخرى، يرى كل من دو بوجراند De Beaugrande ودرسلر

---

(١) ماكدونيل، ديان: مقدمة في نظريات الخطاب. ترجمة وتقديم د. عزالدين إسماعيل. المكتبة الأكاديمية . ط١ (٢٠٠١م) ص٦٧.

(٢) Grabe, W. : Written Discourse Analysis. A R A L. Vol.5. U S A (1985) p. 106

(٣) Widdowson, H. G. : Stylistics and The Teaching of Literature. Longman . Group Ltd. London (1975) pp.7-26.

(٤) المرجع السابق ص ص ٢٧-٤٦ .

Dressler أن النص هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية التي تنهض على الوحدات والأنماط البنائية حال الاستعمال. بيد أن النص عندهما – في الوقت نفسه – ليس محض هيئة أو تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. الأحرى عندهما أن الوحدات الصرفية والجمل توظف من حيث هي وحدات وأنماط إجرائية تشير إلى المعاني والأغراض أثناء الاتصال . يرى دو بوجراند ودرسلر أنه من الصعب أن نحصر دراسة النصوص في صناعة الكلام أو الكتابة؛ وذلك أن هذه الصناعات ناقصة بطبيعتها إذا عزلت عن العمليات الإجرائية التي تؤديها(١) .

إذا كان النص عند هذين المنظرين الرائدين هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية، فإن الخطاب عندهما موقف أو سلسلة من الواقعات Events التي يعرض فيها المشاركون نصوصاً بوصفها أفعالاً خطابية discourse actions. ويجعل كل منهما الاتصال من خلال الخطاب حالة من حالات التخطيط التفاعلي interactive planning (٢) .

يظل التمييز بين النص والخطاب من زاوية كون النص في الأساس بنية في مقابل كون الخطاب في الأساس موقفا هو التمييز السائد في أدبيات نظرية النص وتحليل الخطاب ، بيد أن الإلحاح على ربط النص بمقاصده ووظائفه مما يعيد هذين المصطلحين في الاستعمال إلى دوائر متشابكة ، يبدو فض الاشتباك بينهما أمراً عسيراً جداً .

ومهما يكن من أمر، فإن هناك فروقا أولية ينعقد عليها الإجماع نظرياً، من

(١)De Beaugrand, R- Dressler, W. : An Introduction To Textlinguistics . Longman. London-New York (1983) p. 35.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

أهمها ما يلي :

١- ينظر إلى النص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تكون وحدة دلالية . وينظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للغة فيه أن تعمل على مطابقته .

٢- يحصل من ذلك القول بأن الخطاب أوسع من النص؛ فالخطاب بنية بالضرورة ولكنه يتسع لعرض ملابسات إنتاجها وتلقيها وتأويلها. ويدخل في تلك الملابسات ما ليس بلغة كالسلوكيات الحركية المصاحبة إيجابياً للاتصال.

٣- النص في الأصل هو النص المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنه يتلبّس بصورة الآخر على التوسع؛ إذ يطلق النص على المنطوق، كما يطلق الخطاب على المكتوب؛ كالخطاب الروائي.

٤- يتميز الخطاب عادةً بالطول؛ وذلك أنه في جوهره حوار أو مبادلة كلامية. أما النص فيقصر حتى يكون كلمة مفردة (مثل : "سكوت!") ويطول حتى يصبح مدونة كاملة (مثل : "رسالة الغفران") .

٥- يرتبط ميل الخطاب عادةً إلى الطول والامتداد والحوارية بتمكينه من التعبير عن وجهات النظر والمواقف المختلفة. إذا اتخذنا من خطاب الرواية مثالاً رأينا أن دراسة الخطاب تجرى ضمن كل مظاهر الرواية التي تتصل بها مفاهيم مثل "الحوار" و "وجهة النظر" و "الموقف" و"رؤية العالم" و"نبرة الخطاب" و"اعتقادات المؤلف"، وأنواع الأحكام التي يصدرها، وشبكة العلاقات التواصلية بين المؤلف والشخوص والقارئ الضمني ....الخ .